دور العمل الخيري في تحقيق التنمية الاقتصادية

- رؤية تنزيلية بمقاربات استشرافية -

د. عبد الكريم بناني

عضو في بنية المعاملات المالية والمجتمع لمختبر الدراسات والأبحاث في المالية الإسلامية والتنمية؛ جامعة سيدي محمد بن عبد الله - كلية الشريعة بفاس- المملكة المغربية

الحلقة (١)

العمل الخيري هو كل عمل وفعل ومهنة يتحصل منها النفع والصلاح للفرد والجماعة بنية صادقة ابتغاء وجه الله تعالى.

– من ينظر إلى المشاريع التي تحققت وتتحقق بفضل الاستفادة من الأعمال الخيرية العامة والمتنوعة يتوصّل إلى معرفة الحكمة الربانية أوّلا: في محاربة الاكتناز، وثانيا: في تشريع العمل الخيري، وكل ذلك ما هو إلا إسهام في العملية التنموية التي تعدّ قاطرة للتنمية الاقتصادية.

– نظرا للأهمية التي يوليها الشرع الحكيم لأمر محاربة الفقر، جعل أول مصرف في الزكاة لهذا الصنف، لعلمه سبحانه بما يحققه ذلك من تنمية اقتصادية للمجتمع المسلم.

– استطاع تدخّل العمل الخيري في هذا الجانب أن يسهم بشكل كبير – وما زال – في مدّ العون لفئة مستضعفة في المجتمع، قد يؤدي إهمالها إلى إضعاف اقتصاد الدولة.

– من مقاصد العمل الخيري، حفظ المجتمع من انتشار أسباب الجريمة التي يوجبها الاضطرار والحاجة.

لا يمكن الحديث عن العمل الخيري كفعل إنساني، دون الحديث عن التطور الذي أصبح يعرفه هذا العمل، حيث تنوعت أساليبه وتوسعت دائرته، وتطورت المفاهيم المصطلحية المرتبطة به كمنهج وكعمل، ليصبح الحديث في هذا العصر عن منظومة متكاملة للعمل الخيري تسهم في تقدم الدول الإسلامية لما تؤدّيه من أدوار استراتيجية مهمة تنعكس بشكل إيجابي وفعال.

وبالعودة إلى التأسيس الشرعي للعمل الخيري، نجد الشارع الحكيم يرشد ويبيِّن أهمية العمل ويحثُّ عليه قبل ذلك، يقول سبحانه في كتابه الكريم: **وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** (الحج: ٧٧)، ويقول أيضا:

وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ (آل عمران: ١٠٤)، ويبين النبي صلى الله عليه وسلم بعض أنواعه، فيقول: "**إنَّ سلامَك على عباد الله صدقة، وإماطتك الأذى عن الطَّريقِ صدقة، وإنَّ أمرك بالمعروف، ونهيك عن المنكر صدقة**"[1].

فالعمل الخيري يسهم في التقليل من انتشار ظاهرتي الفقر والعوَز، وتحسينِ الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية للناس، والمساهمة في تحصين النفوس البشرية، وكلّها آثار ومساهمات لها ارتباط بالتنمية الاقتصادية في عمومها ومداخلها المرتبطة بتحقيق الاكتفاء الذاتي، وتثمين الموارد البشرية والإسهام في الرواج الاقتصادي وحركية رأس المال، ويكفي الاستدلال على أصل التنمية والاستثمار بأساس عمارة الأرض، لأن به يتحقق معنى الاستخلاف في الأرض، لقول الحق سبحانه: **هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها** (هود: ٦١)، أي جعلكم عمّارها وسكانها، "فالاستعمار: الإعمار... جعلوا الأرض عامرة بالبناء والغرس والزرع لأن ذلك يعدُّ تعميرا للأرض حتى سمّي الحرث عمارة لأن المقصود منه عمر الأرض"[2]، وهو أمر يسهم بكل تأكيد في تحقيق مفهوم التنمية الاقتصادية.

إن دور العمل الخيري ومساهمته الاقتصادية، تتوسّع دائرته كلما انتظم واعتمد وَفق رؤية عصرية تمكّنه من إيجاد الحلول للمشاكل الاقتصادية التي تعرفها المجتمعات المسلمة على وجه الخصوص، وهو الأثر الذي يتضح جليا وواضحا وملموسا في كثير من الدول العربية التي طوّرت من أساليب الاشتغال وقننّت الوسائل التي تعين في تحقيق التنمية المنشودة والتي تعدُّ من مقاصد تشريع العمل الخيري عموما.

إن للعمل الخيري قيم إنسانية كبرى، فهو سلوك حضاري يتجسد بشكل حيّ في "المجتمعات التي تنعم بمستويات متقدمة من الثقافة والوعي والمسؤولية، كما أنّه يلعب دوراً مهمًا وإيجابيًا في تطوير المجتمعات وتنميتها، فمن خلال المؤسسات التطوعية الخيرية يتاح لكافة الأفراد الفرصة للمساهمة في عمليات البناء الاجتماعي والاقتصادي اللازمة، كما يساعد العمل الخيري على تنمية الإحساس بالمسؤولية لدى

[1] مسند أحمد بن حنبل، ح 8336.
[2] التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، 13/109، دار سحنون، د.ت.

المشاركين ويشعرهم بقدرتهم على العطاء وتقديم الخبرة والنصيحة في المجال الذي يتميزون فيه"[1]، لذلك تزايدت أهمية العمل الخيري في الآونة الأخيرة لما تبيَّن من الآثار الطيبة المحمودة التي تتحقق للمجتمع.

إن البحثَ في دور العمل الخيري في تنمية الاقتصاد، بحثٌ في أسسٍ تنزيلية، تستشرف مستقبلا متميزا يقوم فيه العمل الخيري بدور فعال ومهم، فللعمل الخيري أهداف ومزايا كبيرة سواء على مستوى الفرد أو الجماعة.

وهذه الدراسة تسعى إلى توضيح أهمّية العمل الخيري في الجانب الاقتصادي عموما، ببيان الإسهام الفعلي للعمل الخيري في تعزيز وتطوير الاقتصاد سواء تعلق الأمر بالموارد البشرية أو بالوسائل والآليات العمَلية الإنتاجية التي تحقِّق مستوى معينا من الاستقرار الاقتصادي، وبالتالي تحفيزُ الناس على المبادرة والإسراع إلى تأسيس أعمال خيرية تأسّيا بما يحققه الواقع، خاصّة أنِّي لم أقف على دراسة تعتني بالتأصيل التنزيلي المرتبط بما يتحقّق على مستوى الواقع، بمقارباته المختلفة بين الدول الإسلامية، لذلك ركّزت على بعض الدول الإسلامية التي اعتنت بالعمل الخيري سواء تعلق الأمر بالوقف الإسلامي أو بالمبادرات التي تروم النهوض بالقطاع الاقتصادي، ويتحقق بها تنمية اقتصادية حقيقية.

وهكذا، جاءت الدراسة في تمهيد ومحورين أساسيين: الأول، يرصد دور العمل الخيري في تمويل العملية التنموية وأثر ذلك على الاقتصاد، والثاني، يتناول دور العمل الخيري في محاربة الفقر ومعالجة الظواهر السلبية التي تعرقل العملية التنموية، والثالث، موسوم بدور العمل الخيري في تنمية البنية التحتية والقطاعات الأساسية، والرابع، يتحدث عن دور العمل الخيري في تثمين الموارد البشرية ومعالجة الظواهر المُضعِفة للاقتصاد.

تمهيد، في المراد ب"العمل الخيري" و"التنمية الاقتصادية"

لا يخفى على كل باحث، أنَّ تحديد مصطلحات البحث هو البناء الأول الذي يكشف ويبيِّن أهداف الدراسة، ويميطُ اللثام عن قضايا البحث ومضمونه العام، وقد تحدّدت عناصر هذا البحث ومصطلحاته في: "العمل الخيري"، "التنمية الاقتصادية".

أولا: المراد بالعملِ الخيري ومشروعيته

[1] العمل الخيري ودوره في تنمية الأسرة والمجتمع. نشر بموقع مجلة الوطن على الشبكة: alwatannews.net، بتاريخ: 1 شتنبر 2012.

العمل الخيري من أعظم السمات التي يمكن أن يتحلى بها الإنسان، لأنّها ترتبط بمفهوم التطوع، الذي يتأسس على مفهوم المصالح والمنافع.

أ – معنى العمل الخيري: يقصد بالعمل في اللغة، "المهنة والفعل"[1]، أما الخير فيقصد به "كل ما فيه نفع وصلاح، أو ما كان أداة لتحقيق منفعة أو جلب مصلحة"[2]، وهو يرتبط بحسنِ الاختيار، وتعددِ البدائل التي يمكن الاختيار من بينها[3]، ويشير أبو هلال العسكري (ت ٣٩٥ هـ) إلى الفرق بين الخير والمنفعة فيقول: "إن كل خير نافع، ولكن ليس كل نفع خيرا"[4]، واستشهد بقوله تعالى عن الخمر والميسر: **قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا** (البقرة: ٢١٩).

يقول الأصفهاني(ت ٣٥٦ هـ) عن الخير: إن "الخير ما يرغب فيه كل البشر، كالعقل، والعدل، والنفع، والفضل. وضدّه الشر"[5]، ويقول ابن سينا: إن الخير هو "ما يتشوّقه كل شيء ويتم به وجوده"[6].

وبذلك يكون المراد من العمل الخيري بعد بيان المعنى اللغوي، هو: **كل عمل وفعل ومهنة يتحصل منها النفع والصلاح للفرد والجماعة بنية صادقة ابتغاء وجه الله تعالى**[7].

ب – مشروعية العمل الخيري، تستمد مشروعية العمل الخيري من القرآن والسنة النبوية ومن عمل الصحابة رضي الله تعالى عنهم. ففي القرآن الكريم، وردت الآيات الكثيرة التي تحثّ على فعل الخير والمساهمة والمسارعة إليه، وترتيب الجزاء الأوفى لصاحبه، منها:

---

[1] لسان العرب، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور الإفريقي المصري، مادة عمل، ط.1. ط.2. ط.3. دار صادر. بيروت. لبنان. 2000م. 2003م. 2004م.

[2] قاموس المصطلحات الاقتصادية، محمد عمارة، ص205، القاهرة دار الشروق، د.ت.

[3] العمل الخيري، مفهومه وموقعه من مقاصد الشريعة. ابراهيم البيومي غانم. ص81، مجلة حراء العدد14. تاريخ النشر:22 فبراير 2017، موقع المجلة على الشبكة: hiragate.com

[4] الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري، ضبطه وحققه حسام الدين القدسي، ص161 - 16، دار الكتب العلمية، بيروت ط1981.

[5] المفردات في غريب القرآن، أبو القاسم الحسين بن محمد الأصفهاني، راجعه وقدم له وائل أحمد عبد الرحمن. مادة خير المكتبة التوفيقية. القاهرة. مصر.

[6] النجاة في الحكمة المنطقية والطبيعية والإلهية، أبو علي الحسين بن عبد الله بن سينا، تقديم ماجد فخري، ص229، دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1985.

[7] يعرف الدكتور يوسف القرضاوي "العمل الخيري"، فيقول: "هو النفع المادي والمعنوي الذ يقدمه الإنسان لغيره، من دون أن يأخذ عليه مقابلا ماديا ولكن ليحقق هدفا خاصا له أكبر من المقابل المادي، قد يكون عند البعض الحصول على الثناء، والشهرة أو نحو ذلك من أغراض الدنيا، والمؤمن يفعل ذلك لأغراض تتعلق بالآخرة، رجاء الثواب عند الله عز وجل، والدخول في جنات النعيم، فضلا عما يناله في الدنيا من بركة وحياة طيبة، وسكينة نفسية، وسعادة روحية، لا تقدر بثمن عند أهلها". أصول العمل الخيري في الإسلام في ضوء النصوص والمقاصد الشرعية، يوسف القرضاوي، ص21، دار الشروق ط2/2008م.

قال تعالى: **وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** (الحج: ٧٧)، وقال أيضا: **وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ** (آل عمران: ١١٥) ويقول أيضا: **ولتكن منكم أمةٌ يدعون إلى الخير** (آل عمران: ١٠٧).

وفي السنة النبوية، نجد الأحاديث الكثيرة التي تؤسِّس لمفهوم عمل الخير، منها: قال رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم "**إنَّ سلامَك على عباد الله صدقة، وإماطتك الأذى عن الطَّريقِ صدقة، وإنَّ أمرك بالمعروف، ونهيك عن المنكر صدقة**"[1].

وعن عمرو بن الحارث، عن زينب امرأة عبد الله بمثله سواء قالت: كنت في المسجد فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم فقال: "**تصدقن ولو من حليكن**"، وكانت زينب تنفق على عبد الله وأيتام في حجرها، قال: فقالت لعبد الله: سل رسول الله صلى الله عليه وسلم أيجزي عني أن أنفق عليك وعلى أيتامي في حجري من الصدقة؟ فقال: سلي أنت رسول الله صلى الله عليه وسلم! فانطلقت إلى النبي صلى الله عليه وسلم فوجدت امرأة من الأنصار على الباب حاجتها مثل حاجتي، فمر علينا بلال فقلنا: سل النبي صلى الله عليه وسلم أيجزي عني أن أنفق على زوجي وأيتام لي في حجري؟ وقلنا: لا تخبر بنا، فدخل فسأله فقال: من هما؟ قال: زينب، قال: أيُّ الزيانب؟ قال: امرأة عبد الله، قال صلى الله عليه وسلم: **نعم لها أجران أجر القرابة وأجر الصدقة**"[2].

أما أعمال الصحابة رضي الله تعالى عنهم، فأكثر من أن تحصى في دراسة واحدة، فمبراثهم وأوقافهم وأعمالهم الخيرية دوّنت في كتب التاريخ والحضارة والسير، منها: أرض خيبر التي أوقفها عمر رضي الله عنه على الفقراء وذوي القربى والرقاب والضيف وابن السبيل، وعين رومة التي أوقفها عثمان بعد أن اشتراها من رجل ببني غفار بخمسة وثلاثين ألفا وجعلها للمسلمين، والبئر التي حفرها سعد بن عبادة رضي الله عنه وقال: "هذه لأم سعد"[3].

ج – أنواع العمل الخيري: لا يمكن الحديث عن نوع واحد من العمل الخيري، فالنصوص الشرعية والواقِع العملي يؤكد وجود نوعين من العمل الخيري:

---

[1] سبق تخريجه.
[2] صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب الزكاة على الزوج والأيتام في الحجر، ح1397.
[3] انظر نيل الأوطار. محمد بن علي الشوكاني. 6/127. دار الفكر. د.ت. وانظر فقه السنة 3/379 و380 بتصرف. ط4/دار الفكر بيروت 1983.

– العمل الخيري الفردي، الذي يقدمه الفرد من تلقاء نفسه أو استجابة لطلب أو لضرورة أو حاجة أو لاعتبارات إنسانية واجتماعية.

– العمل الخيري الجماعي، الذي تشرف عليه المؤسسات والجمعيات والتعاونيات، وتمارسه في إطار منظّم ومحكم، تعبّر من خلاله عن رقي المجتمع ومساعدة الناس بعضهم لبعض، امتثالا لأمر الله عز وجل **وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان** (المائدة: ٢)

ثانيا: المراد بالتنمية الاقتصادية

التنمية مجموعة من العمليات التي توحّد بين جهود الناس، لتجديد وتطوير الظروف الاقتصادية والاجتماعية، بما يحقق كرامة الإنسان ويعينه على العيش الكريم، لذلك خصصت هذا العنصر للحديث عن هذا المفهوم بشكل أوضح.

أ – التنمية لغة واصطلاحا: لغة؛ لفظ التنمية مشتق من فعل (نمى)، ينمي نميا ونماءا: زاد وكثر، وربما قالوا: ينمو، نموا. قال الأصمعي: التنمية من قولك: نميت الحديث أنميته تنمية، بأن تبلغ هذا عن هذا على وجه الإفساد والنميمة، وهذه مذمومة، والأولى محمودة. وقال الجوهري: وتقول: نميت الحديث إلى غيري نميا، إذا أسندته ورفعته، وقول ساعدة بن جؤية:

فبينا هم يتابعون لينتموا بقذف نياف مستقل صخورها

أراد ليصعدوا إلى ذلك القذف. ونميته إلى أبيه نميا ونميا وأنميته: عزوته ونسبته، وانتمى هو إليه: انتسب، وفلان ينمي إلى حسب وينتمي: يرتفع إليه. وفي الحديث: "**من ادعى إلى غير أبيه**[1] **أو انتمى إلى غير مواليه أي انتسب إليهم ومال وصار معروفا بهم**"[2،3].

– **اصطلاحا**: التنمية من أكثر المصطلحات اتساعا في عصرنا الحالي، ولا سيما في دول العالم الثالث التي اتخذت منها منهجا للتقدم والرقي والتخلص من وهدة التخلف واللحاق بركب الحضارة.

ويستخدم اصطلاح التنمية بمعنى الزيادة من رفع مستوى المجتمع اقتصاديا واجتماعيا، ويختلف مفهوم التنمية أو النماء عن مفهوم التغير، لأن التغير لا يؤدي بالضرورة إلى التقدم والارتقاء في المجتمع، أما النمو

[1] عَنْ سَعْدِ بن أَبي وقَّاصٍ رضي الله تعالى عنه أَنَّ النبيَّ ﷺ قالَ: مَن ادَّعَى إلَى غَيْرِ أَبِيهِ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ غَيْرُ أَبِيهِ فَالجَنَّةُ عَلَيهِ حَرامٌ. صحيح البخاري. كتاب الفرائض. باب من ادعى إلى غير أبيه.ح 6385.

[2] لسان العرب لابن منظور الافريقي. ج14/364. - ص 75.دار الفكر - 2003.

75 - لسان العرب لابن منظور - مج الخامس عشر - دار الفكر - بدون تاريخ.

فيختلف عن مفهوم التنمية لأنه قد يحدث بصورة تلقائية دون التدخل المعتمد من قبل المجتمع[1]، وهناك أنواع أو أبعاد مختلفة من التنمية منها التنمية الاقتصادي economic development ويفرق كثير من الاقتصاديين بين التنمية الاقتصادية والنمو الاقتصادي economic growth على أساس أن التنمية الاقتصادية تعني تدخلا إداريا من الدولة في الحياة لدفع عجلتها نحو النمو بمعدل أسرع من معدل النمو الطبيعي عن طريق الخطط والبرامج التي تضعها الدولة وتنفذها، أما النمو الاقتصادي فالمقصود به عند هؤلاء الاقتصاديين النمو التلقائي والعفوي للاقتصاد بحيث يزداد الناتج القومي في الدولة وفي دخل الفرد الحقيقي دون تدخل إداري منها[2].

ومن تعاريف التنمية بصفة عامة أنها التحريك العلمي المخطط لمجموعة من العمليات الاجتماعية والاقتصادية من خلال إيديولوجية معيّنة لتحقيق التغير المستهدف من أجل الانتقال من حال غير مرغوب فيها إلى حالة مرغوب الوصول إليها[3].

ب – التنمية الاقتصادية: إن الدارس للتاريخ البشري يقف عند حقيقة مهمة، وهي أن "المفكرين المسلمين كانوا أول من درس بأسلوب يغلب عليه الطابع العلمي قضية التنمية الاقتصادية"، وسميت عندهم بعمارة الأرض، انطلاقا من قول الحق سبحانه: **هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها** (هود: ٦١)، أي جعلكم عمارها وسكانها بما ينفع الناس ويحقق لهم الصلاح، وأصدق دليل على هذا القول هو التراث الفكري الإسلامي الذي تزخر به المكتبة العربية وغيرها من المكتبات، وكشاهد على ذلك يذكر الباحث شوقي أحمد دنيا (الكاتب ابن خلدون) في كتابه المشهور (مقدمة ابن خلدون) بالدراسة جوانب متعددة لموضوع التنمية، وإن لم يشع هذا اللفظ في مؤلفه، إلا أن ذلك لا يغير من حقيقة الأمر، فالعبرة بالمضمون قبل أن تكون باستخدام مصطلحات معينة[4].

فالفكر الإسلامي سبَّاق إلى وضع نظرية متكاملة ومتوازنة وواقعية للتنمية الاقتصادية كمنهج وكعلم، لأن علم التنمية الاقتصادية يقوم على بعث وإطلاق قوى معينة من القوى الإنتاجية في الدول خلال فترة قصيرة أو طويلة الأجل لكي تتحقّق زيادة كبيرة في الدخل، وذلك من خلال التغيرات المناسبة في

---

[1] الإسلام والتنمية البشرية - د. عبد الرحمان عيسوي - ص 22 - 14 بتصرف - دار النهضة العربية.
[2] التنمية من منظور إسلامي - ج 2، وقائع الندوة التي عقدت في عمان - مؤسسة آل البيت - ط 1994 - 1.
[3] الإسلام والتنمية البشرية - ص 22، مرجع سابق.
[4] الإسلام والتنمية الاقتصادية - شوقي أحمد دنيا. - ص 18 - دار الفكر العربي - ط 1/1979.

الهيكل الإنتاجي والإطار التنظيمي مستهدفة في ذلك استمرار جميع قطاعات الاقتصاد القومي[1]، وهناك من الاقتصاديين من يقصرها على الجانب المادي فقط ويعرفها بأنها تحسين في رفاهية السكان المادية في دولة أو منطقة معينة، وهناك من يرى أنه ليس هناك تعريف وافٍ واحد للتنمية الاقتصادية[2]، بل توجد تعاريف متعددة ومركبة، لكنها في مجموعها تؤكد وجود مقاييس معتمدة تبيِّن الانتقال من حالة اقتصادية إلى أخرى جديدة بوساطة آليات تقوم على دراسة الخطط التطويرية والاستفادة من الإمكانات المتاحة والثروات الموجودة بالبلد سواء البشرية أو الزراعية أو التجارية أو الصناعية.

إذن، التنمية الاقتصادية كما يعرّفها أهل الاقتصاد: "**العملية التي من خلالها تتحقق زيادة في متوسط دخل الفرد الحقيقي خلال مدة معينة، ويحدث ذلك عن طريق تغييرات في كل من هيكل الانتاج ونوعية السلع والخدمات المنتجة، مع ضمان التوزيع العادل للدخل**"[3].

أما مجالات التنمية الاقتصادية فمتعددة، تشمل: القطاع الزراعي، القطاع الصناعي، القطاع التجاري، قطاع البنيات الأساسية، وقطاع الخدمات.

المحور الأول: دور العمل الخيري في تمويل العملية التنموية وأثر ذلك على الاقتصاد

حظيت التنمية باهتمام كثير من المفكرين والفقهاء المسلمين الذين أظهروا أنها ليست عملية إنتاج فحسب، وإنما هي عملية كفاية في الإنتاج مصحوبة بعدالة في التوزيع، وأنها ليست عملية ماديِّة فقط، وإنما هي عملية إنسانية تهدف إلى تنمية الفرد وتقدمه في المجالين المادّي والروحي، ومن بين النصوص الشرعية التي تقرر هذه الحقائق، قوله تعالى: **هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا** (هود: ٦١)، أي جعلكم سكانها وعمارها، وقوله تعالى: **وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ** (الحديد: ٧)،وقوله سبحانه كذلك: **فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى** (طه: ١٢٤).

وسأبين هنا مفهوم التنمية في الفكر الإسلامي وعلاقتها بتمويل العملية التنموية وأثرها على الاقتصاد.

---

[1] الاقتصاد في ضوء الشريعة الإسلامية،د - محمود محمد بلبلي ط2/ص27 - دار الكتاب اللبناني بيروت - 1980.
[2] دور السياسة المالية في تحقيق التنمية الاقتصادية - د. السيد عبد الواحد - ط1/ص220 دار النهضة العربية1993.
[3] الواجبات الكفائية وأثرها في تحقيق التنتمية الاقتصادية. عمر محمد مونة ص208. رسالة للحصول على درجة الماستر. كلية الدراسات العليا، الجامعة الأردنية.2005.

أولا : مفهوم التنمية في الفكر الإسلامي

التنمية في المفهوم الإسلامي تعني عبادة الله عز وجل عن طريق الزيادة في الإنتاج باعتبارها تحمّلا لأمانة عمارة الأرض "**إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة[1]،فإن استطاع ألا يقوم حتى يغرسها فليغرسها**"[2].

فليس الهدف من التنمية في الإسلام الحصول على الربح أو تلبية حاجات الدولة فقط، ولكن الهدف من التنمية هو إشباع حاجات أفراد الأمة على مستوى الكفاية وليس الكفاف فقط، ثم إشباع حاجات الدولة المكلفة بتحقيق العدل وحماية المجتمع الإسلامي في أوقات السِّلم والحرب : **وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم** (الأنفال : ٦٠) .

فالإسلام كان سبَّاقا إلى إثارة مفهوم التنمية انطلاقا من مرادفات أخرى كالإعمار، التعمير، التزكية، وتشمل جميع مناحي الحياة، فلا تختص بجانب دون آخر، مركزا على محور هذه التنمية وهو الإنسان "لأنّه الكائن الوحيد القادر على الإصلاح والتغيير والبناء وكذلك التطوير، وذلك بسبب الميزات التي خصّه الله سبحانه وتعالى بها دون عن غيره من المخلوقات الأخرى من ضمنها العقل والتفكير"[3].

ثانيا : دور العمل الخيري في تمويل العملية التنموية وأثر ذلك على الاقتصاد

اضطلع العمل الخيري بدور مؤثِّر في مواجهة ما يكتنف العملية التنموية من مشاكل تمويلية تهدد نجاحها واستمرارها، ذلك أن لهذا العمل مقصد مهمّ وأساسي يتمثل في محاربة الاكتناز، وبالتالي توفير مورد مالي للأهداف التنموية عن طريق حركة المال وروجَانها داخل السوق، "فالتصدق بالمال يقتضي تحريكه بين أفراد المجتمع وجعله دُولة بينهم، ولا يبقى مكنوزاً أو جامداً فيفقد وظيفته الأساسية، ومن أجل ذلك حث الشارع الحكيم على الإنفاق وجعله قرضًا بيد الله يضاعفه لصاحبه أضعافًا كثيرة، ويخلفه عليه، ويبارك له فيه"[4].

---

[1] الفسيلة:نخلة صغيرة.
[2] مسند أحمد بن حنبل ج 3 / ص 191.
[3] مفهوم التنمية في الإسلام. صابرين السعو.بحث نشر بموقع: mawdoo3.com تاريخ: 28 غشت 2016.
[4] أثر الأعمال الخيرية في تنمية الاقتصاد الإسلامي، د. أحمد بن عبد العزيز الحداد.مرجع سابق.

فوجود العمل الخيري ممثلا في الوقف والصدقات التطوّعية – يسهم جنبا إلى جنب مع الزكاة – صدقة المال الإلزامية – في تحرير رؤوس الأموال العينية والنقدية من سيطرة حبّ أصحابها الفطري لها، فبينما تتجه أموال الزكاة إلى مصارفها المحددة شرعا "يعمل الوقف على تحويل رؤوس الأموال من أحباس عاطلة مكتنزة لدى أصحابها، بعيدة عن الإسهام في التنمية، إلى أوقاف لتحقيق التنمية، من خلال مجالات محددة اجتماعيا واقتصاديا"[1]، وبالتالي "تحويل لجزء من الأموال من الفئات الأكثر ادخارا إلى الفئات الأكثر استهلاكا، وهذا بذاته يدعم النمو الاقتصادي خلال مضاعفة الاستهلاك"[2]، فالترهيب الإلهي لمن يكتنز أمواله، فيمنعها عن التداول وتحقيق النفع له ولباقي أفراد مجتمعه المستخلفين فيها، يدفع بالمسلم إما إلى استثمارها في شتى المجالات التنموية تحقيقا للعائد الدنيوي وهو حال عدد من التجار، وإما إلى تخصيص نصيب منها إلى الاتجار مع الحق سبحانه وتعالى وتحقيق العائد الذي يظل رغم مرور الزمان، ويبقى أجره بعد موت صاحبه، فالله سبحانه وتعالى فتح لعباده بابا واسعا للإفادة مما جعلهم مستخلفين فيه من رؤوس الأموال، حيث يضمن العمل الخيري لصاحبه الثواب والأجر، فيكون ذلك دافعا قويا للقضاء على الاكتناز المادي للثروات واستبداله بتحقيق الثواب المستمر عند الله وإسهاما في تمويل المشاريع التنموية، قصد الوصول بالمجتمع إلى درجة التكافل المطلوب، تحقيقا لمقصود الشارع من تشريع العمل[3].

وإنّ من ينظر إلى المشاريع التي تحققت وتتحقق بفضل الاستفادة من الأعمال الخيرية العامة والمتنوعة يتوصّل إلى معرفة الحكمة الربانية؛ أوّلا: في محاربة الاكتناز، وثانيا: في تشريع العمل الخيري، وكل ذلك ما هو إلا إسهام في العملية التنموية التي تعدّ قاطرة للتنمية الاقتصادية.

ولفهم الدور الذي يقوم به العمل الخيري في خلق حركية لرأس المال ورواج اقتصادي مهم، نجد أن بعض الدول الإسلامية اعتنت به وأسّست من خلاله ركائز أساسية وداعمة للمجتمع، فتنوع المشاريع المرتبطة بهذا الدور يعكس بحق رؤية رسالية واضحة في منهج إعمار الأرض ومحاربة الاكتناز الذي يهدد سبل الاستقرار المادي عموما.

---

[1] أثر الوقف في تنمية المجتمع. ص 93. د. نعمت عبد اللطيف مشهور - المؤسسة الجامعية للنشر والتوزيع 1996.

[2] دور العمل الخيري في تعزيز الاستقرار الاقتصادي. د. أحمد ابراهيم ملاوي. ص15. المركز الدولي للأبحاث والدراسات مداد.

[3] انظر لمزيد التوسع، كتاب البعد المقاصدي للوقف بالمغرب. د. عبد الكريم بناني. ص 96 وما بعدها، أفريقيا الشرق. ط 1/2014.

المحور الثاني، دور العمل الخيري في محاربة الفقر ومعالجة الظواهر السلبية التي تعرقل التنمية الاقتصادية

تتوقف ضروريات الحياة من أكل وشرب وسكن وتعليم على وجود مستوى معينّ من المعيشة، فلا يمكن تحقيق هذه الضروريات التي تمثل كليات الشرع دون العمل على محاربة الفقر والهشاشة ورفع مستوى المعيشة، وهي الأهداف الرئيسية للتنمية الاقتصادية، فمعيار "قياس التقدم الاقتصادي عند كثير من الاقتصاديين متوسط الدخل الفردي إذ هو أقرب المعايير لقياس مدى ازدهار المعيشة وتحسّنها"[1].

والمتتبع للنظام الاقتصادي عموما، لا يخفى عليه التطور الملحوظ الذي أصبح يعرفه العمل الخيري، حيث ظهر في وقتنا الحالي كمنظومة متكاملة قادرة على إيجاد الحلول للمشاكل الاقتصادية المعاصرة، بل ويسهم بشكل فعال وإيجابي في خلق دينامية اقتصادية جديدة، ويعرف تغييرات عدة على مستوى المفاهيم والوسائل والمرتكزات والبنيات، فبالرجوع إلى كتب التراث الإسلامي نجد العمل الخيري سواء الوقف أو الصدقات عموما اقتصر تدخله في حلّ المشاكل الاجتماعية والإنسانية بالأساس، دون تحديد للأهداف أو تدبير محكم ومخطط له بطريقة تمكن من تحقيق التقدم الاقتصادي المنشود.

لكن ولظروف ترتبط بتطور المجتمعات، وجدنا العمل الخيري يقف عند أدوار مهمة في المجتمع، وينتظم بشكل عقلاني في إطار ما يسمّى "بالمجتمع المدني"، حيث تأسست جمعيات ومراكز تسعى في أهدافها إلى تحقيق التنمية للمجتمع اقتصاديا واجتماعيا.

١ : دور العمل الخيري في محاربة الفقر

جاءت الشريعة الإسلامية متضمنة لمقاصد جليلة وعظيمة، أهمها، التعاون والتكافل بين أفراد المجتمع الواحد تحقيقا لمعاني الأخوة الإسلامية التي نطق بها الحديث الشريف: "**مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى**"[2]، وأيضا لرفع المعاناة والألم عن المحتاج والمسكين، حتى لا يصبح عالة على المجتمع، ويسهم بدوره في تنمية محيطه ومجتمعه، ويصير هذا التكافل سمة من سمات المجتمع المسلم، وضمانا لمجتمع

[1] التنمية الاقتصادية. كامل بكري. ص 72 - 71. دار النهضة العربية للطباعة والنشر والتوزيع.1986. وانظر بحث: الواجبات الكفائية ص 216. مرجع سابق.
[2] البخاري. ح. 5552. مسلم. ح. 4586.

خال من الجريمة التي تهدد الأمن الاقتصادي والاجتماعي، فالفقر حسب الدراسات الحديثة، عائق من عوائق التنمية الاقتصادية إن لم تتم معالجته بشكل عقلاني محكم، فكثير من الدول التي تعيش تحت وطأة الفقر تعاني من مشاكل اقتصادية لا يمكن الخروج منها دون القضاء على الفقر الذي يهدد الأمن الاقتصادي لهذه الدول.

ونظرا للأهمية التي يوليها الشرع الحكيم لأمر محاربة الفقر، جعل أول مصرف في الزكاة لهذا الصنف، لعلمه سبحانه بما يحققه ذلك من تنمية اقتصادية للمجتمع المسلم، يقول سبحانه: **إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** (التوبة: ٦٠)، لأن من مقاصد هذا العطاء تحصيل معاني الأخوة دفعا للحقد والغل بين أفراد المجتمع الذي يهدّد استقراره، ولذلك ذهب المالكية والشافعية والحنابلة إلى إعطاء الفقير والمسكين من الزكاة ما يكفيهما ويكفي من يعولون[1]، قال الإمام ابن جرير الطبري (ت ٣١٠ هـ): "الله جعل الصدقة في معنيين أحدهما: سدُّ خَلَّة المسلمين، والآخر: معونة الإسلام وتقويته"[2].

وقد استطاع العمل الخيري، أن يقف عند هذا المقصد فأسهم بشكل كبير في مكافحة ظاهرة الفقر "سواء من خلال تقديم المساعدات المالية المباشرة أو عن طريق تقديم الخدمات للفقراء بشكل مباشر أو غير مباشر من خلال تنمية مهارات الفقراء عن طريق التعليم والتثقيف والتأهيل[3]، كما وجدت أوقاف في البلاد الإسلامية، اعتنت بتوفير الطعام للمحتاجين، وحتى البذور للفلاحين لإنتاج الطعام[4]، كما توجد بعض الأوقاف الأخرى تعتني بتوزيع الخبز على الأيتام والأرامل وأبنائهم[5]، بغرض إقامة مصالح ضعاف المسلمين وقضاء حوائجهم التي لا تستقيم حياتهم إلا بها لأن ذلك هو مقصود الشريعة الأعظم من التصرفات التطوعية والإلزامية[6].

---

[1] مواهب الجليل في شرح مختصر الشيخ خليل. أبو عبد الله محمد الحطاب.2/343. دار الفكر. ط 3/1412 هـ/1990. والمجموع شرح المهذب. أبو زكريا محي الدين يحي بن شرف النووي..6/175.دار الفكر. د.ت. وكشاف القناع على متن الإقناع. منصور بن يوسف البهوتي.2/284.دار الفكر.بيروت، لبنان. 1402هـ.

[2] جامع البيان في تأويل القرآن.ابن جرير الطبري.تحقيق:أحمد محمد شاكر.14/316.مؤسسة الرسالة. ط 1/1420 هـ/ 2000.

[3] دور العمل الخيري في تعزيز الاستقرار الاقتصادي. د. أحمد ابراهيم ملاوي. ص 14.مرجع سابق.

[4] مجلة الإحياء كانت تصدرها رابطة علماء المغرب، ص 39، العدد 22 - يوليوز 1997.

[5] نشرة منجزات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية لسنة 2009. ص 46. مطبعة فضالة المحمدية،د.ت.

[6] مقاصد الشريعة الخاصة بالتبرعات والعمل الخيري، عز الدين بن زغيبة، ص 5-6،بحث مقدم لمؤتمر العمل الخيري الخليجي الثالث "دبي"، 20 - 22 يناير 2008.

وقد استطاع تدخّل العمل الخيري في هذا الجانب أن يسهم بشكل كبير – وما زال – في مدّ العون لفئة مستضعفة في المجتمع، قد يؤدي إهمالها إلى إضعاف اقتصاد الدولة، حيث يمكّن هذا العمل من خلق رواج اقتصادي بفعل حركية الأموال التي تتداول في يد الفقراء، فتؤدّي إلى تداول السلع والأموال فيرتفع بذلك الإنتاج "فما يوضع في يد مسكين سيشتري به خبزا؛ والخباز سيشتري به قمحا؛ والفلاح سيشتري به ثوبا؛ والنسّاج سيشتري صوفا... وكلما مرّ بيد ترك رزقا حسنا؛ وذلك على المستوى الأدنى"[1].

٢ : دور العمل الخيري في معالجة الظواهر السلبية التي تعرقل التنمية الاقتصادية

إن للعمل الخيري في تحقيق التنمية الاقتصادية دورا مهما ومتميزا، حيث يساهم بتضافره مع الأسس الاقتصادية الأخرى في معالجة ما يواجه تنمية المجتمع من مشكلات وظواهر سلبية تعرقل القيام بالعملية التنموية قصد النهوض بالمجتمع، هذا فضلا عن مساهمته في تنمية القطاعات الاقتصادية المختلفة.

أ – دور العمل الخيري في محاربة الأمية والتأهيل العلمي والمعرفي: لا يمكن لأي دولة أن ترفع تحدي التنمية اقتصادية وشعبها يقبع تحت وطأة الأمية، لذلك كان للعمل الخيري الإسهام الفعال في تحقيق هذه التنمية من خلال العمل على رفع مستوى الوعي العام، ومحاربة الأمية بمستوياتها المختلفة، والدعوة إلى العلم والتعلم "فبه تتكون شخصية الإنسان الفاعل فيكون عالمًا شرعيًا أو عالمًا علمًا نظريًا أو تجريبيًا، أديبًا أو مؤرخًا أو مهندسًا أو طبيبًا أو زراعيًا أو فيزيائيًا أو جيولوجيًا أو ميكانيكيًا أو طيارًا أو عسكريًا ماهرًا... أو غير ذلك، وهكذا يكون فعل الخير محركًا للاقتصاد ونافعًا للبشر وجالبًا للاستقرار ودافعًا للخطر والضرر"[2].

وقد وجدنا مؤسسات خيرية وجمعيات تؤسَّس لهذه الغاية، وتقوم بأدوار متميزة لتحقيق أهدافها، سواء تعلق الأمر بالأمِّية القرائية أو الأمية المعرفية أو الأمّية التكنولوجية، فإضافة إلى المؤسسات والمعاهد التي أنشأت وحبست عليها المحلات التجارية بهدف خدمة العلم والتعلم، وتحرير الناس من ربقة الأمية، نجد حاليا الكثير من الجمعيات الخيرية بالدول الإسلامية ترفع هذا الشعار، وتسهم في تطوير المجتمع اقتصاديا من خلال إعادة تأهيل المواطن فكريا وعلميا، كما توجد مؤسسات ومراكز أيضا تعتني بمجال البحث العلمي بأبعاده المتقدمة إيمانا منها في أن التعليم هو أحد أكثر الأدوات فعالية في كسر حلقة الفقر، وخلق

[1] الأموال التي تجب فيها الزكاة. د. أحمد لسان الحق. ص 71 سلسلة ندوات 30.
[2] أثر الأعمال الخيرية في تنمية الاقتصاد الإسلامي. مرجع سابق.

مجتمع فاعل اقتصاديا، فلا سبيل إلى تحقيق تنمية اقتصاديا في ظل مجتمع يعيش تحت ربقة الأمية والجهل.

ب – دور العمل الخيري في علاج المرضى وبناء المستشفيات: لا يمكن الحديث عن معوقات التنمية الاقتصادية دون الحديث عن المرض الذي يؤثِّر بشكل كبير في مردودية الموارد البشرية التي ترتبط بالتنمية الاقتصادية، فـ "إسهام فعل الخير بتطبيب المرضى يعتبر عاملاً مهمًا من عوامل التنمية الاقتصادية، حيث يسعف المرضى فيسهم بشفائهم حتى يقوموا بدورهم الحيوي في العمل والكسب والإنفاق على أنفسهم ومن يعولون، فلو تركوا بمرضهم لاستشرى المرض، بل لانتشرت الأوبئة وفسدت حياة الناس، وفي الناس خير كثير بحمد الله في هذا الجانب"[1].

وهذا المنحى لا يرتبط فقط بالتدخل المباشر في علاج المرضى بل أيضا ببناء المصحات والمستشفيات "فإنه نفع كذلك للمصحات والمستشفيات، حيث ينشط الاقتصاد بذلك كثيراً – كما لا يخفى"[2].

وقد قامت عند المسلمين على مرّ التاريخ، أعمال خيرية عنيت بتقديم المساعدات اللازمة للمرضى سواء بطريق مباشر أو غير مباشر، حيث وجدنا من أوقاف المسلمين ومبراثهم ما يبيِّن تجذر هذا الفكر في تاريخ الأمة، فقد اهتم الوقف بمكافحة كثير من الأمراض لدى الإنسان وذلك بإنشاء مستشفيات ومصحات يعالج فيها، سواء كانت تلك المستشفيات أو المصحات تتعلق بعلاج أمراض عضوية أو بعلاج أمراض نفسية أو عقلية، ولقد بلغ من عناية المسلمين بالمستشفيات لكي تقوم بأداء الخدمات الكاملة نحو مرضاها بصورة متكاملة وتساهم في تطور صحّة المجتمع، أنّه كانت ترصد لذلك المساهمات الكبيرة لبناء أحياء طبية متكاملة الخدمات والمرافق، كما تنشأ في العصر الحديث المدن الطبية الآن[3]، كمستشفى ٥٧٣٥٧ بمصر، والمختص في علاج سرطان الأطفال، حيث تم بناؤه عن طريق التبرعات الخيرية[4].

كما عملت جمعيات أخرى على الاستثمار في المشروعات الصحية وخاصة ما يرتبط ببعض الأمراض المستعصية أو المزمنة كالسرطان والقصور الكلوي أو السكري وغيرها من الأمراض.

---

[1] أثر الأعمال الخيرية في تنمية الاقتصاد الإسلامي. د. أحمد بن عبد العزيز الحداد. مرجع سابق.
[2] نفس المرجع السابق.
[3] ندوة مؤسسة الأوقاف في العالم العربي والإسلامي - السعيد بوركبة. ص 203. بغداد 1983.
[4] تقع المستشفى على مساحة 69 ألف متر مربع وبلغت تكلفة إنشاء المبنى والأماكن المحيطة به 300 مليون جنيه، انظر موقع: sis.gov.eg